ه. ج. ولز

فى الثالث عشر من أغسطس ١٩٤٦ مات الأديب العالم المفكر القصصى هربرت جورج ولز. فلم يفقد العالم بموته شيئاً كثيراً. فمن مات فى التاسعة والسبعين من عمره فقد استوفى أجله أو كاد. وولز بالذات لم يغبن فى حياته ولم يضن على العالم بشىء فى مستطاعه أن يؤديه؛ فلقد كتب كما لم يكتب إلا الأقلون كمًّا وكيفا، ولقد فكر لبنى البشر وجمع لهم حقائق المجتمع ودلائل التاريخ، ولقد ناضل فى سبيل المبادئ الإنسانية العليا نصف قرن من الزمان صالح فيه عقول هذا الجيل وترك طابعه الذى لايمحى على مرّ الأيام.

ولد ه. ج. كما يلقبه أصدقاؤه فى ٢١ سبتمبر ١٨٦٦ ببلدة بروملى من أعمال مقاطعة كنت بجنوب انجلترا، وكان أبوه بستانيا آناً وصاحب حوينيت لا يدر مالا كثيراً آنا آخر، ولاعبا محترفا فى فريق كنت الرياضى يرتزق من لعبة الكريكيت. وكانت أمه خادما فى دار ريفية كبيرة أو وصيفة كما يشاء أدب الإنجليز أو نفاقهم أن يسميها. وقد ساء تعليمه فى المبتدأ ووقف عند حد بسبب فقر أهله، فبدأ العمل صغيراً أولاً بوصفه صبيًّا فى حانوت أصواف، ثم بوصفه مساعداً فى صيدلية. ولكنه ثار على هذه الحياة المحدودة خلف منضدة البيع وبين العقاقير، وجاهد فى التحصيل حتى ظفر بجائزة مالية تتيح له طلب العلم فيما يسمى الآن الكلية الإمبراطورية للعلوم، وتخرج فى هذه الكلية بامتياز عظيم، ومن ثم اشتغل بالتدريس زمناً وجيزا، ثم انقطع عام ١٨٩٣ للصحافة والتاليف ونشر الدعوة الاشتراكية. وقد تزوج مرتين أولا عام ١٨٩١ من ابنة عم له لم يلبث أن طلقها، ثم من آنسة تدعى آمى كاترين روبنز.

ولكن وراء هذه السيرة المقتضبة التى قد تكون سيرة أى صحفى تافه فى فليت ستريت، أو أى مؤلف تافه فى بلومزبرى، سيرة أخرى قوية ملأى بالحوادث،

هى سيرة عقله الكبير وقلمه الخصب . ولقد كان عقل ولز بين عقول العظماء كبيراً حقا ، ولكن بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . لم يكن عقلا لامعاً ذا بريق يخطف أبصار الناظرين ، او عقلا نافذاً كالسلاح الماضى الدقيق الذى يقطع حجب الفكر ويستخرج الدر من ثناياها ، رغم كل ما اتصف به هذا الرجل من قدرة على التنبؤ ، بل كان عقلا كبيراً فحسب . وفى هذا العقل الكبير جمع ولز ملايين الحقائق فى كل باب من أبواب الحياة تقريباً ، من نشأة العضويات إلى مؤتمرات الصلح ، ومن ألعاب الأطفال إلى قوانين الاقتصاد . ولقد كتب فى ذلك كله وكتب كثيراً ، بل لعله كتب أكثر مما ينبغى ، وهذا هو المقصود بخصوبة قلمه . فنحن إذن بإزاء عملاق شاهق الأبعاد هائل القوة ، ولكن أبعاده الشاهقة وقوته الهائلة تبدو هُنا أكثر مما تبدهنا صفاته الأخرى .

وكثير من قصص ولز يشتمل على ترجمة للسنين الأولى من حياته ، ومنه وصف مفصل يفيض بالمرح والسخرية من الحياة التى كانت تحياها الطبقة المتوسطة الصغيرة فى عصر الملكة فكتوريا ، وهى الطبقة التى نشأ فيها ولز وذاق مرارة العيش . ففى قصة « الحب ومستر لويشام » (١٩٠٠) وصف لحال ولز أيام كان يشتغل بالتدريس فى مدرسة ميدهرست الأولية ، ويعد العدة للنزوح إلى لندن حيث يحصل من جامعتها على درجة « بامتياز فى جميع المواد » . وفى قصة « كيبس » (١٩٠٥) يعود ولز إلى الظهور فى زى البطل ، فالبطل كيبس كالكاتب ولز صبى فى حانوت أصواف وهو يتدرج تدرجه فى سلم الحياة . ولكنه يجد أخيراً أن حياة الموسرين لا تحقق ما كان يرجوه فيها من أحلام سعيدة . أما قصة « تونوبنجى » (١٩٠٩) فهى تصور المجتمع الذى شب ولز فيه ، ومحورها صيدلى كشف عن دواء جديد فغدا به مليونيرا ثم أفلس إزاء منافسة المنافسين . وفى « سيرة مستر پولى » (١٩١٠) تعرض ولز لنظام التعليم فى انجلترا وطعن فى سلامته . أما السيرة الرسمية التى ترجم بها ولز لنفسه بلغة الواقع فلم تظهر إلا فى شيخوخته .

وقد كان لنشأته الأولى أعظم الأثر فى تكوين أفكاره الأولى وأفكاره الدائمة كذلك . فولز الصغير لم تكن له ثياب لورد فونتلروى الصغير الذى أجاد تصويره أيما إجادة ، ولم يكن له تعليمه الهادئ المنتظم ؛ فقد كان رث الثياب ممزق الحذاء ناقص التعليم . وهو يحدثنا عن كل ذلك فيقول فى « آلام الأحذية » وهى

نشرة اشتراكية من نشرات الجماعة الفابية أصدرها عام ١٩٠٥ : « لقد قضيت الشطر الأكبر من طفولتى فى مطبخ تحت الأرض ، وكانت نافذة المطبخ تطل على مساحة من الأرض يسدها جدار تعلوه سفافيد أمام واجهة حانوت أبى ، فكنت بذلك كلما أطللت من النافذة رأيت أسفل الناس ولم أر رؤسهم وأجسامهم كما يفعل غيرى من الأطفال الذين تفضل نشأتهم نشأتى . وهكذا تعرفت على جميع أنواع الناس فى كل طبقة من طبقات المجتمع ، فكانوا عندى مجرد أحذية تتحرك بل مجرد نعال تمشى . »

وقد تعارف النقاد على تقسيم قصص ولز إلى ثلاثة أنواع : الأول أساطيره العلمية ، والثانى قصصه الواقعية ، والثالث قصصه الجدلية . وهذا التقسيم لايحتاج إلى تعمق فى دراسة ولز ، فهو يفرض نفسه على القارئ فرضا .

أما الأساطير العلمية فمرحلتها تقع بين ١٨٩٥ و ١٩٠٨ وأهمها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كالآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفى » و « فى زمن المذنب » و « الزيارة العجيبة » . وقد كانت هذه الأساطير أول ما كتب ولز إذا تجاوزنا عن محاولاته الصحفية الأولى وهى تافهة . وموضوع هذه الأساطير الكوكب الأرضى وسكانه وحضاراته ، وغيره من الكواكب وسكانها وحضاراتها . ومسرح هذه الأساطير الأزل والأبد ، الماضى السحيق الذى يقاس بالسنين الفلكية والمستقبل البعيد الذى لا نعرف ولا يمكن أن نعرف عنه شيئاً . والبطل فى أكثر هذه الأساطير هو العلم . فمنهج ولز أن يتخيل صورة العالم وصورة المجتمع الإنسانى حين يتم إخضاع كل شىء فيهما للعلم . لذلك كانت كل أسطورة من هذه الأساطير أشبه بنبوءة ، ومن هذه النبوءات ما تحقق فعلا . وفى هذه الأساطير يسخّر ولز العلم لخدمة الخيال على نسق لامثيل له فى تاريخ العلم أو فى تاريخ الخيال ، اللهم إلا فى قصص الكاتب الفرنسى چول ڤيرن ، والتشابه لايسوّغ القياس . وقد جرت العادة بين النقاد أن يربطوا ما بين فن ولز وفن ڤيرن ، ولكن الاختلاف بينهما عظيم : فڤيرن يتخيل حقًا كما يتخيل ولز ، وڤيرن يجعل العلم أداة الخيال كما يجعله ولز ، ولكن ڤيرن يقف عند المغامرات القصصية ، ولا يتجاوزها بحال ، أما ولز فيحاول من ورائها أن يعيد بناء العالم والمجتمع وهو يستخدمها مناسبة لعرض تأملاته وشرح آرائه . وطريقته أن يخرج من

تيار الحياة ويقف من كل شيء موقف المشاهد المتأمل الذى لا يربطه بما يشاهد رابط ولا تصله بما يتأمل صلة . وليس هذا غريباً فى ولز ؛ فلعل نشأته العلمية بين المعامل قد عوّدت هـذا الأديب أن ينهج فى أدبه منهج العالم ، أو لعل عادة التجرد هذه هى التى ألزمت هذا الأديب بدراسة العلوم فى الجامعة وما بعدها . ومهما يكن الأصل ففى هـذه الأساطير ينظر ولز إلى العالم وما فيه من أحياء نظره إلى السائل وما فيه من جراثيم تحت المجهر . والمنهج الذى يتبعـه فى أدبه هو منهج العلم ؛ فالأدب عنـده لا يستطيع أن يسجل صورة صادقة للحياة إلا إذا انفصل الأديب من الحياة جملة ، ووصفها وصفاً موضوعيا لا أثر للذات فيه ، أى وصـفها وصف العالم الچيولوچى لصخرة من الصخور . وهذا لا يتأتى بخروج الأديب من العالم فحسب بل يقتضى خروجه من نفسه كذلك . لذلك نجد ولز فى أساطيره العلميـة ينظر إلى العالم آناً بعينى مَلِك ، وآناً بعينى جنيَّة ، وآناً بعينى عمـلاق ؛ وبذلك أمكن لولز أن يرى الحشود البشرية فى مجموعها ، وأن يستعرض موكب الحضارة من بعيد ، وبذلك أمكنه أن يرجم بما عساه أن يكون هدف هذه الحشود العظيمة من الأحياء ، وأن يطّلع على ماتشكو منه «الإنسانية» من أوجاع ، وأن يرسم للناس فى حدود تقديره طريق الخلاص . وقد وجد أن طريق الخلاص هو طريق العلم . ولقد يكون ولز مصيباً فى تقديره إذا كان موقف المصلح من المجتمع موقف الطبيب من المريض بجسـمه ، ولقد يكون مخطئاً إذا كان موقفه موقف المحلل النفسى من المريض بنفسه . والأرجح أن موقف المصلح من المجتمع موقفهما جميعاً .

ولقد استطاع ولز بأساطيره العلمية هذه أن يبلغ مكانا مرموقاً بين الكاتبين ، ولـكن نصيب الأدب فيه يبدأ بالطور الثانى من أطوار إنتاجه ، طور القصص الواقعية ، طور « كيبس » و « سيرة مستر پولى » و « تونوبنجى » . وبهذه القصص الواقعية وحدها كان يمكن لولز أن يخلد فى عالم الأدب ، وبها وحدها يجوز لمن يشاء أن يلقبه بخليفة دكنز العظيم ؛ فالنَّفَس الذى يشيع فيها نفحة من نَفَسه ، والبيان من بيانه . بل إن ولز قد يتجاوز دكنز فى بعض المواضع من ناحية صفاء الأسلوب وعمق التحليل . وفى هذه القصص الواقعية يصل ولز إلى كثير مما وصل إليه دكنز ، فيوفق مثله لخلق الشخصيات الحية المكتملة التكوين ، ويسخر مثله من العصر وحضارته لا عن طريق التبشير الصريح

والتعريض المباشر ، بل بما يخلق من شخصيات وما يسرد من وقائع . وهو يهجو الطبقة البورجوازية طبقته ، لا بالنقد ولا بسباب الغاضبين ، ولكن بالوصف الأمين لما يقول أبناؤها وما يفعلون . وعلى الجملة فولز يدرك فى هذه القصص الواقعية مهمة الفنان ويحققها ، فهو لا يستثير الناس على معايب المجتمع الإنجليزى بل يضحكهم منها ، وهو لا يستخدم أبطاله لشرح نظرياته فى الحياة ، ولكن يستخدمهم لشرح نظرياتهم إن مستر پولى رجل من دم ولحم لا مجرد صورة أو كاريكاتور . ونحن نضحك منه حقًّا ولكننا نعطف عليه كذلك ؛ فهو نموذج للرجل الحائر الذى خلقته الحضارة الحديثة وحطمته فى وقت واحد ، ذلك الرجل الذكى الذى فقد نفسه وسط هذه الحركة الكثيرة وخارت قواه فى تيار الحياة الجارف فاشتهى أن يغرق ، ولكن تيار الحياة لفظه بالرغم منه على الشاطىء بين الحصى والرمال ، فعاش كالسمكة خارج الماء . إن مستر پولى رجل مكتمل الرجولة ، وهو متزوج منذ خمسة عشر عاما ، ودأبه فى الحياة أن يحتفظ بحانوته التافه الذى لا يتردد عليه الناس . أما نفسه فجائعة ، وأما بدنه فسقيم ، والحياة عنده لم تعد تحتمل . لذلك يعقد عزمه على الانتحار . وليس بينه وبين الانتحار إلا مستقبل زوجته ، فيهتدى إلى حل يضمن به موته وحياة زوجته ، وذلك الحل هو إحراق الحانوت والاحتراق فيه ، فبإحراق الحانوت والاحتراق فيه تستولى زوجته على التأمينين ويخلص هو من شقائه . ويحترق الحانوت ولكن مستر پولى لا يحترق ، بيد أنه يختفى على أية حال بعد قليل ، ويبدأ الحياة من جديد هائماً على وجهه فى طرقات انجلترا ، جيوبه فارغة ورأسه عامر بالأحلام . ومما من شك فى أن شخصية مستر پولى نقد للمجتمع الإنجليزى فى نهاية القرن الماضى ، أو نقد لحياة البورجوازية الصغيرة على وجه التخصيص . ولكن النقد الذى نجده فى شخصية مستر پولى لا يقاس بالنقد الذى نجده فى شخصية كيپس . فكيپس كپولى وكولز ذاته بورجوازى صغير ، وهو غلام يعمل صبيًّا فى حانوت أصواف كما كان خالقه يعمل فى حداثته ، وهو يعانى ما يعانيه سائر صبيان الحانوت من شقاء العمل والحرمان وخنق الحرية ؛ فهم يعيشون فى عنبر قيوده مضنية شأن جميع العنابر ، ومع ذلك نسمع منهم هذا الحديث وهم فى العنبر قبل أن ينطفىء النور كالمعتاد بحكم القوانين التى وضعها صاحب الحانوت :

« وتابع بجينز القراءة ، فقد أثارت اهتمامه افتتاحية عن شئون الهند أبلغ إثارة . قال :

— إن من الحمق أن يعطى هؤلاء السود حق التصويت

قال كيبس :

— وأى حمق ؟

قال بجينز :

— إنهم من طينة غير طينتنا ؛ فليس لهم ما للإنجليز من منطق رشيد ، وليس لهم ما لهم من خلق متين . وإن فى خصالهم نوعاً من الغدر والتحايل ؛ فشهادة الزور مثلا وأشباهها من التصرفات التى لا يعرف عنها الإنجليز شيئاً فى طبيعتهم . وكيف يعرف الأمانة من كان فى جبنهم ومذلتهم ؟ إنهم لم يعتادوا الحرية كما اعتدناها ، ولو أعطيت لهم لأساءوا استخدامها . أما نحن . . . آه . . . اللعنة !

فقد انطفأ النور فجأة ولا يزال أمام بجينز عمود كامل عن لغو المجتمع الراقى كان يحب أن يقرأه . »

ومثل هذا التهكم اللاذع بأبناء البورجوازية الصغيرة وبآرائهم وآمالهم قد يبلغ فى « كيبس » مبلغ السخط . ففى « كيبس » سخط على نظام التعليم ، وسخط على عقم الحياة الريفية ، وسخط على استبداد الموظفين الجهال ، وسخط على العقلية الإنجليزية الضيقة ، وعلى « الغباوة ذلك الحكم المطلق فى بلادنا » بلغة ولز . وهـذا كيبس مضطجع إلى جوار زوجته بعد مشاحنة سفيهة سببتها غباوتهما ، وولز من ورائهما يقول :

« لولا ضيق العقل ... لولا ذلك الوحش لما تلمس كل منهما أتفه الأسباب ليؤذى صاحبه كل هذا الإيذاء المرير . لولا ذلك الوحش لخرج من طفولتهما الذهبية وشبابهما اليانع ثمر سعيد ، واستيقظ فيهما وعى يستقبل أفكار العالم ، ولنفذ ضوء الأدب المنعش إلى قرارة روحيهما ، ولتفتحت نفساهما بدل هذا الاستغلاق ؛ لإدراك الجمال الذى ننعم به نحن المجدودين ، ولرؤية ذلك الحلم الذى تصفو به الحياة إلى الأبد . لقد سخرت منهما فى الماضى ، وإنى لأسخر منهما الآن لعلك أن تسخر معى منهما كذلك . . . ولكنى أنفذ فى ظلام روح كيبس وزوجته كما اراها الآن قطعتين ورديتين من المادة الحية المرتجفة ، وجسدين أشبه بجسدى طفلين يشكوان الجهل والسقم وسوء الغذاء ، طفلين

يتعذبان ، طفلين مشاكسين مضطربين يشقيان ولا يعرفان لشقائهما سببا ، طفلين يطبق عليهما مخالب ذلك الوحش الجهنمى . »

كذلك الأمر فى « تونوبنجى » وهى أعظم قصصه الواقعية جميعاً أو من أعظمها على أقل تقدير ؛ فهى سجل أمين لحياة الطبقة المتوسطة الصغيرة فى انجلترا أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهى تصف ما أصاب المجتمع الإنجليزى إبان هذه الفترة التاريخية من تصدع ، وتصور خروج الأرستقراطية إلى الأبد من الحياة الإنجليزية ، ودخول فئة من الأدعياء ذوى الجاه والمغامرين الموسرين ليحلوا محلها . وفى هذه القصة نجد السخط قويًّا كذلك . فالعم بوندريفو صيدلى ريفى ابتكر مستحضراً جديداً ، فربح من ورائه الملايين ، ثم أفلس حين ظهر له منافسون جدد ، وقد جاءه كل هذا المال الكثير دون أن يحدث فى شخصيته وأخلاقه تطور يقابل ارتفاع قدره فى الحياة :

« لقد كان عمى يملك فى أوج غناه نقداً وعيناً نحو مليونى جنيه على أقل تقدير مقابل ديون جسيمة لا تعرف على وجه التحديد . أما دائرة نفوذه التى كان يتحكم فيها فقد كانت تشمل فى مجموعها نحو ثلاثين مليوناً . وقد منحه كل ذلك مجتمعنا الذى تحكمه الفوضى وتختل موازينه . نعم ، كافأه مجتمعنا كل هذه المكافأة ؛ لأنه يجلس داخل غرفة ويشتغل بالدسائس ويطلق فى الناس الأكاذيب . فعمى لم يخلق شيئاً ولم يبتكر شيئاً . ولست أستطيع أن أدعى أن أى مشروع من المشروعات التى نظمناها قد عاد بأدنى نفع على الحياة الإنسانية . »

وما هذا الصيدلى إلا نموذج لطبقة الأدعياء والمغامرين الذين مكنتهم الصناعة والنظام الرأسمالى من اقتحام العالم والاستيلاء عليه وطرد طبقة الأشراف منه بعد أن ظلّوا آمنين دهراً وراء زراعتهم ونظامهم الإقطاعى . وقد ذهب الأرستقراط وتركوا وراءهم خراباً ثقافيًّا وفراغاً مدنيًّا عجز البورچوازيون من بعدهم عن تعميره وملئه . ومع ذلك يبدو أن ولز مغتبط بهذه النتيجة ، على العكس من جولزوردى الذى عالج الموضوع نفسه فى ملحمة « فورسايت » والأسف يملأ قلبه على المجد الذى كان ، وللبربرية التى سادت المجتمع من بعده .

وقصة « تونوبنجى » هى آخر ما كتبه ولز فى باب القصص الواقعية . وما من

شك فى أنها ومثيلاتها تشتمل على مواضع ما كان ينبغى أن توجد فيها ، وولز لم يستطع أن يتجنب فيها دائماً إعلان آرائه فى السياسة والاجتماع والأخلاق الخ ، من كل ما يغض من قيمتها الفنية ، وتحت المرح الذى يحيط ببولى وكيبس والعم بوندريفو نرى وجه ولز العبوس ، ولز المصلح ، ونقرأ فى أساريره سخطه على المجتمع . ولكننا نستطيع بوجه عام أن نحكم بأن شخصية الكاتب تختفى وراء أشخاص قصصه الواقعية ، كما نستطيع أن نحكم بأن هذه القصص الواقعية برغم ما فيها من استطراد ملحوظ منشأة على تصميم واضح لا يخطئه أحد ، وهذا ما يجعلها آثاراً أدبية من طراز عظيم . ولو أن لولز ما لأستاذه دكنز من رحابة فى القلب وحرارة فى العواطف ومقدرة على العطف لما تخلف عنه فى كثير أو قليل ، فرحهما سواء وسخريتهما واحدة ، وفهمهما لتفاصيل المجتمع البورجوازى الصغير يكاد يكون متساوياً . بل إن لولز ما لدكنز من عيوب ، فكلاهما يبلغ قمة فنه حين يلتزم وصف الحياة فى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى نشأ فيها ، وكلاهما يخفق إخفاقاً واضحاً كلما خرج من دائرة هذه الطبقة واجترأ على غيرها من الطبقات . ومهما يكن من شىء فسيرة ولز الأدبية تنتهى هنا . فقد انصرف قبيل عام ١٩١١ إلى تحبير نوع ثالث من القصص ليس فيه من الأساطير العلمية ولا من تصوير الواقع شىء : انصرف إلى تحبير القصص الجدلية أو القصص الاجتماعية أو القصص الفكرية أو ما شئت من الأسماء التى لا تختلف كثيراً وتتفق جميعاً فى أنها ليست من نصيب الفن . ومن هذه القصص « مستر بريتلنج » و « چون وپيتر » و « آن ڤيرونيكا » وكثير غيرها مما نسيه الناس أو كادوا . ومنهج ولز فى هذه القصص الجدلية يختلف عن منهجيه السالفين فى الأساطير وفى الواقعيات . لقد ضاق بالخيال ذرعاً ، فعدل عنه وكتب عن الواقع . وها هو ذا يضيق بالواقع ذرعاً فيعدل عنه ويكتب عن الأفكار . ولكل قصة من قصصه الجدلية « هدف » أو « رسالة » . والهدف العام هو مناقشة الآراء الاجتماعية وتحليلها . والرسالة العامة هى الإصلاح الاجتماعى . أما وصف الحياة المجرد فلم يعد ولز يكتفى به ، وهذا دليل على أن طبيعة المفكر المصلح فيه أقوى من طبيعة الأديب الفنان . وما هذا التحول فى ولز بظاهرة جديدة تماماً أو خفية تماماً ؛ فبذور التبشير موجودة فى كل عمل من أعماله الأولى حتى أعظمها شأناً وأقربها إلى روح الفن الصرف . وولز قبل سواه يعلم بأمر هذا التحول فيه ،

بل لقد أعلنه إعلانا فى مقال له عن « القصة المعاصرة » نشره عام ١٩١١ فى عدد نوفمبر من مجلة « فورتنايتلى ريفيو » . وفى هذا المقال ، أو فى هذا البيان بتعبير أدق ، حدد ولز وظيفة القصة كما يفهمها هو ، فإذا بها وظيفة لا تقوم بها « آلة الزمن » ولا تقوم بها « كيپس » أى لا تقوم بها أساطيره العلمية ولا تقوم بها قصصه الواقعية : فمبادئ القصة فى بيانه ثلاثة : أولها أن القصة استطرادية فى طبيعتها ، فهى نسيج من خيوط كثيرة قد تختلف فى ألوانها ، وهذا يقضى على مبدأ التصميم الذى يلتزمه الفنانون فى القصص . وثانيها أن القصة مرنة ورحيبة تتسع أو يجب أن تتسع لـكل شىء فى الحياة من إدارة الأعمال إلى السياسة إلى شواهد التاريخ إلى الأعمال الفاضلة إلى الأعمال الفاضحة ، وكل هذه المواد تختلط وتنسجم وتصفو فى نهاية القصة ، وهذا يهدم مبدأ الوحدة . وثالثها أن القصة وإن لم تـكن منبراً يستخدمه القصصى لشرح آرائه فهى « كرسى الاعتراف ونبع المعرفة ودافع النفس إلى أن تراجع نفسها مراجعة مثمرة » ، وهى كذلك معرض الآراء ومكان امتحان السلوك الإنسانى . وقد بدأ ولز يجرب هذا المنهج فى القصة قبل أن يصدر بيانه ببضع سنوات ، ودأب عليه بقية حياته ، فانتقل بذلك من قائمة الأدباء إلى قائمة الـكتاب الاجتماعيين .

أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة ، وهو امتداد لهذا النوع من الأدب الذى وضع أساسه دكنز وبنى عليه جورج إليوت وأضاف إليه أرنولد بنيت . فما المراد من هذه العبارة ؟ لاشك أن نشأة ولز فى أسرة من أسر الطبقة المتوسطة الصغيرة قد ترك فى آثاره خصائص يتفرد بها أبناء هـذه الطبقة دون سواهم ، فجاء أدبه بهذا المعنى من أدب البورجوازية الصغيرة . وأبسط مثال لذلك ضخامة إنتاجه التى يعجز دونها الـكثيرون ، وهى ضخامة تدل على جده ودؤوبه على العمل سواء فى الاطلاع أو فى التحرير . والجـد والدؤوب على العمل خاصتان تتميز بهما البورجوازية الصغيرة أكثر مما تتميز غيرها من الطبقات . كذلك الحال مع أسلوبه ؛ فهو ليس بالأسلوب الحر السوى الذى يُؤتاه صاحبه ويعمل على إتقانه بقية عمره ، بل هو أسلوب غير ثابت الصفات يتراوح كثيراً بين القوة السكسونية والطنطنة اللاتينية ، فيه من إتقان الحريص شئ وفيـه من إهمال المتعجل شئ ، وهو أسلوب طموح يحس قارئه بأن صاحبه يحاول الاستفادة

من مستصعب الكلم فيوفق آناً ويخفق آناً ، وهو أسلوب يتفاوت كثيراً بين الصدق والادعاء . وعلى الجملة فهو أسلوب ذو شخصية تشبه شخصية صغار البورچوازيين ، بعض جوانبها يدعو إلى الإعجاب وبعض جوانبها كريه تمجه النفوس ، ولكنها فى كل حالة تحاول أن تثبت وجودها وتفرض نفسها على الناس فرضاً . ولكن أدب ولز أدب البورچوازية الصغيرة بمعنى آخر كذلك ؛ فهو يصف حياة هذه الطبقة ومشاكلها وصفاً مفصلا يوشك أن يكون جامعاً مانعاً . وولز مع طول اشتغاله بالاشتراكية ليس بالكاتب العاملى الأصيل الذى وقف بيانه على تصوير الحياة البروليتارية بمعناها الصحيح ، وإنما هو كاتب من فقراء المتوسطين كتب عن فقراء المتوسطين . وبؤس الإنسانية عنده يبدأ ببؤس الأحذية وبؤس التعليم الإلزامى ، ومشاكل الجماهير عنده تتركز فى إزالة هذين البؤسين . والناس فى قصصه خدم وليسوا بالخدم فى وقت واحد ، وصيادلة ريفيون يجدّون وراء المال ويوفقون لاقتناء الكثير منه ، ومدرسون لهم فى الحياة آمال صغيرة وأطماع تافهة بعضها يتحقق وبعضها يخيب . والشخصيات عنده شخصيات فردية تتحرك بالدوافع الفردية أكثر من سواها . فولز أديب البورچوازية الصغيرة بالمعنى الذى أراده القصصى الأمريكى هنرى چيمس حين كتب يقول : « أنت أول من وصف الطبقة المتوسطة الصغيرة فى انجلترا وصفاً خلا من التنميق وخلا من الغرابة وخلا من الإسراف وخلا من الخيال الدخيل الذى يكثر فى أدب دكنز مثلا فيضلل القارئ ، ويكثر فى أدب چورج إليوت فيخرج به عن الجوهر . فلقد وصفت ما فى هذه الطبقة من الابتذال بروح هى روح العالم وروح المؤرخ معاً ، ولقد رأيت تفاصيل الحياة بين أبناء هذه الطبقة على هذا الضوء القوى ، ضوء العلم والتاريخ . »

على أن أدب ولز أدب البورچوازية الصغيرة بمعنى آخر أكثر عمقاً من كل ما تقدم ؛ فهو ليس مجرد أديب من صغار البورچوازيين يكتب للبورچوازية الصغيرة عن حياة البورچوازية الصغيرة فيجيد الكتابة والتصوير . وهو ليس مجرد مرآة صادقة تنعكس فيها حياة صغار المتوسطين ، بل هو الأديب الذى «يعبر» عن هذه الطبقة فى كل شئ من حيث ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، ومن حيث فلسفتها السياسية والأخلاقية ، ومن حيث آلامها وآمالها فى الحياة ، ومن حيث شخصيتها الإنسانية التى تميزها عن سائر طبقات المجتمع . فهو إذن

مرحلة فى تاريخ الفكر الإنسانى والأدب الإنسانى ؛ وهو ظاهرة فى تطور المجتمع لا سبيل إلى فهم ذلك التطور إلا بدراستها . وصلته بالبورچوازية الصغيرة صلة عضوية حتمية ، فهو المثبت لوجودها المظهر لقوتها المفكر لها المعبر عن أهدافها فى الحياة .

وآيات ذلك فى أدبه كثيرة فولز قد نشأ فى أواخر القرن التاسع عشر مع نشوء الحركة العاملية ومع نشوء الفلسفة الاشتراكية بنوعيها الماركسى الثورى والپرودونى التطورى ، فماذا كان موقفه من العمال والاشتراكيين ؟ آمن ولز بحقوق العمال حقًّا ، ولكنه لم يؤمن بها إيمان عامل بل آمن بها إيمان صديق للعمال . فهو يؤمن بحقوق الإنسان أكثر من إيمانه بحقوق العمال ، وهو يؤمن بحقوق العمال لأنها جزء لايتجزأ من حقوق الإنسان . وانتصاره للطبقة العاملة دون غيرها من الطبقات طبيعى بحكم الجوار ؛ فطبقته البورچوازية الصغيرة أقرب ما تكون إلى البروليتاريا ، وهى أقرب إلى البروليتاريا منها إلى الطبقات الأخرى ، وانفصال المفكرين والمثقفين عامة من صغار البورچوازيين عن طبقتهم البورچوازية الصغيرة ، وانضمامهم فى المبدأ والأمانى إلى جموع البروليتاريا أمر مألوف أو شك أن يكون قاعدة فى الحركات السياسية . لهذا كله اختار ولز من بين النظريات الاشتراكية الكثيرة الشائعة أكثرها اعتدالا وأقربها إلى فهم البورچوازية الصغيرة ، فآمن بنظام الملكية المشتركة كما يؤمن كل اشتراكى ، ولكنه آمن كذلك بالانتقال المقسط أو بالتدرج أو بالتطور ، ولم يؤمن بالانقلاب الكامل أو بالطفرة أو بالثورة . آمن بپرودون ولم يؤمن بماركس ، فصدق عليه وصف ماركس لپرودون بأنه أستاذ فى الجامعة له قدم فى الطبقه البروليتارية وقدم فى الطبقة البورچوازية ، فهو مذبذب بينهما حائر يجتهد فى التوفيق بين أمانيهما فيخسرهما جميعاً . وولز يؤمن بحقوق الإنسان عامة دون حقوق العمال على وجه التخصيص ؛ لأنه يحس بوعى منه أو بغير وعى أن الإنسانية لا تقتصر على العمال والعاملين كما يقول الماركسيون ، بل تتسع حتى تشمل كذلك الطبقات العاملة المالكة والطبقات المالكة فحسب . وهذا اختلاف جوهرى فى وجهة النظر ، منشؤه أن ولز يقف فى منتصف الطريق بين المستغلِّين والمستَغلين . ولأنه يقف بحكم طبقته ومصلحتها فى منتصف الطريق بينهما نراه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً . ولأنه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن

بهما جميعاً نراه يعتقد أن للطبقات العاملة حقوقاً أولها امتلاك وسائل الإنتاج بالاشتراك ، ويعتقد أن للطبقات المالكة حقوقاً كذلك أولها تعويضها عن وسائل الإنتاج التى تنزع من يدها . ولأنه يرى وجهتى نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً نراه يعترف بشخصية الطبقات غير العاملة ويعترف بشرعيتها ضمناً ، وهذا ما لا يفعله الماركسيون الذين يعدون الطبقات المالكة طفيليات تعيش على جسم البروليتاريا وتأكل ثمار العاملين ، ويعدون الملكية الفرديه لوناً من ألوان الاغتصاب يحميه القانون . ولأنه يعترف بشخصية الطبقات المالكة وبشرعيتها نراه يؤمن بالتدرج فى تطبيق البرنامج الاشتراكى . ولهذا كان طبيعيًّا أن يجد ولز فى الجماعة الفابية منظمة كافية لنشر الاشتراكية بين الناس ثم تطبيقها على المجتمع ، فانضم إلى برنارد شو وسيدنى وب وبياتريس وب وجراهام والاس ، وساهم بنصيب لا بأس به فى حركة التنوير الاشتراكى التى اضطلع بها الفابيون .

وبهذا المعنى يصح أن نصف ولز بأنه أديب إنجليزى لحماً ودما . فالبورجوازية الصغيرة هى العمود الفقرى للشعب الإنجليزى ، وعقلية صغار البورجوازيين هى العقلية السائدة بين أبناء هذا الشعب ؛ فهم يطلبون الاشتراكية ولكن بمقدار ، وينشدون التغيير ولكن فى الحدود البطيئة التى تمليها الحاجة الملحة ويأذن بها النظام . وهم شديدو الفردية أشخاصاً وشعبا يقيسون كل شىء بمقياسهم ، وينفرون من كل تأثير خارجى ، ويرفضون كل فلسفة أو نظام من شأنه أن يحدّ ممكنات التضخم أمام « الأنا » .

وولز شديد الإيمان بالمنهج العلمى . وشدة الإيمان بالمنهج العلمى كانت خاصة هامة من خواص البورجوازية الصغيرة والكبيرة فى انجلترا وفرنسا وحدها إبان القرن التاسع عشر ، أى إبان نماء البورجوازية وعنفوانها . وذلك لأن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية قدشبّتا فى جو من الحرية بوشك أن يكون مطلقا بعد تصارعهما المشهود فى الحروب النابوليونية ، وانتهتا من تلك الحروب إلى تقسيم العالم بينهما ، وبذلك نضجت الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية فى جو من الأمان أشبه ما يكون بأمان الاحتكار ، مصدره استئثارها بأسواق العالم دون غيرها من الرأسماليات المتأخرة فى الدول الأخرى ، فلاغرابة أن تؤمنا بالعلم مصدر رخائهما ، وبالعقل أس سعادتهما . أما البورجوازية الألمانية فقد نشأت وشبت وشاخت فى جو من العنت والمحاصرة والاضطهاد

الخارجى ، فلا غرابة إذن أن يتصف الفكر البورچوازى الألمانى فى كل مرحلة من مراحله من نخته إلى شينجلر بالثورة على العقل والإيمان بالعاطفة فالبورچوازية بوجه عام لم تكن دائماً كما نعرفها نحن أبناء القرن العشرين قوة ثائرة على قوانين العقل ثائرة على منهج العلم ، تؤمن بالعاطفة والخرافات فى كل باب من أبواب النشاط الإنسانى ، وتنجب من المفكرين أمثال سوريل وشينجلر وروزنبرج وألدوس هكسلى ، ومن الأدباء أمثال ت . س . إليوت وچيمس چويس و د . ه . لورانس ، ومن الفلاسفة أمثال أدنجتون وبرجسون وبرتراند رسل ، بل تنجب من العلماء من يجلسون حول المائدة ويخاطبون الأرواح أمثال أوليفرلودج وكونان دويل . كانت البورچوازية بين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر ، أى بين عام ١٧٩٤ عام الإرهاب الأكبر الذى ألغى فيه روبسپيير المسيحية وأقام عبادة العقل مكانها ، وعام ١٨٩٥ الذى خلق أوسكار وايلد فيه « دوريان جراى » وألغى به العقل وأقام عبادة الجمال مكانه — كانت البورچوازية إبان هذه الفترة تؤمن بالعلم وبالعلم وحده ، وتربط مستقبل الإنسانية وسعادتها بفتوحات العلم التجريبى فى المعمل ، وبفتوحات العقل المشاهد بين طبقات الأرض وقبائل الهمج ، وبفتوحات الذهن المبتكر بين آلات الإنتاج ، وكانت بورچوازية متفائلة تؤمن بفلسفة « التقدم » أى مطمئنة إلى تقدم البشر المطرد ؛ لأنها كانت بورچوازية منتصرة مستقرة لا تجد ما يهدد سلامتها ، فلما اكتهلت تكشف ما فى نظامها الرأسمالى من تناقض داخلى ، فبدأت الرأسماليات الجديدة (ألمانيا وأمريكا أولا ، ثم اليابان وإيطاليا) تنازع الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية ما كان لهما من سيطرة مطلقة على أسواق العالم ، من كل ماجر إلى التسابق الاستعمارى والحروب الكلية ، وبدأت عوامل الهدم الداخلية تنشط بظهور الحركة العاملية التى تهدف إلى إلغاء النظام الرأسمالى جملة وإحلال نظام عاملى محله . وإزاء كل هذه الظروف التى جدّت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر زال عن البورچوازية الإنجليزية والبورچوازية الفرنسية ما كان لهما من اطمئنان سابق على المستقبل ، وتزعزع ما كان لهما من ثقة فى « التقدم » ، وتشككتا فى كفاية العقل والعلم لحل مشكلات الإنسانية ، بل ظهر منهما أنبياء مزيفون يتحدثون عن الكارثة المحدقة بالنوع الإنسانى وينذرون بانهيار الغرب ، ويتوقعون حلول الساعة أو العودة إلى الهمجية الأولى ،

وانتقل التفاؤل والإيمان بالعقل والعلم والثقة التى لا حد لها فى « تقدم » الإنسانية من البورچوازية المنهارة إلى البروليتاريا الفتية التى تطلب حقها فى الحياة . وقد كان طبيعيًّا هذا التعميم الذى نجده فى فلسفة البورچوازية وفى فلسفة البروليتاريا ؛ فكل طبقة من طبقات المجتمع تتحدث عن الإنسانية ومصير الإنسانية ؛ لأنها تتوهم بالحق أو بالباطل أو بهما معاً أنها والإنسانية سواء .

فولز يقف فى منتصف الطريق بين البورچوازية والبروليتاريا ، وهذا هو سره الكبير ومفتاح شخصيته وأدبه معا . فقد أخذ عن البورچوازية إيمانها بالعقل والعلم أيام كانت تؤمن بالعقل والعلم . فلما زال عنها إيمانها بالعقل والعلم لم يعدل ولز عن إيمانه بالعقل والعلم . لماذا ؟ لأنه ليس بورچوازيا صرفا ، ولو قد كان لكفر بهما كما كفرت البورچوازية وليئس من المستقبل كما يئست . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأن له أصولا فى البروليتاريا إلى جانب أصوله البورچوازية . لهذا كله ظل ولز قوة تقدمية عظيمة فى المجتمع ، يبشر بالعقل والعلم ويحطم الاستسلام للعاطفة والانسياق أمام الخرافات . وهذه دلالة بطولة هذا المفكر ؛ فقد ثبت وحده أو بين نفر قليل على إيمانه بالحياة كأنه الصخرة التى لا تتزعزع ، ورأى الأرض تسوخ تحت قدميه فى أواخر القرن الماضى وأدباء الكارثة من حوله يتجمهرون ، فما عدل عن إيمانه بالعقل أو بالعلم . وهذا هو نصيب البروليتاريا الحقيقى فيه . فمن آمن بالعقل والعلم دفع البشرية إلى الأمام .

ولكن ولز كما أخذ عن البورچوازية القوية إيمانها بالعقل والعلم ، أخذ كذلك عنها شيئاً من التشاؤم الذى اتصفت به حين كثرت فيها ومن حولها عوامل الهدم . وقاق ولز على مصير « الإنسانية » لا يبلغ مبلغ التشاؤم حقا إلا قبيل وفاته ، وهو لون من الشك أو الخوف المعقول الذى يدفع إليه الحرص . فولز ليس من أدباء الكارثة أو مفكريها ، وإنما هو طبيب أمين ونبى يتكهن بالغيوب . وهو يرى أن أداة التقدم هى العقل والعلم ، ولكنه يرى كذلك أن تقدم الإنسانية ليس ضرورة تاريخية ولا جبرا ماديا كما يرى الماركسيون وعامة مفكرى البروليتاريا المطمئنون إلى مستقبل الطبقة العاملة ، بل هو أمر جائز إذا دامت للإنسانية شروط التقدم وهذا غير مضمون . وكثرة الأوجاع التى تشقى بها الإنسانية فى القرن العشرين وهول هذه الأوجاع من حروب مهلكة ونظم مدمرة لا يبشران بخير كثير ؛ فهو إذن يرى نُذُر الكارثة ولا يرى الكارثة

نفسها . ولقد وقف ولز حياته أو شطرا عظيما منها يحذر الناس وينذرهم من مآلهم إن لم يرعووا . فالعقل والعلم عنده قد يكونان أداة خراب بمقدارما هما أداة تعمير . والعلاج عنده هو إلغاء العاطفية والعدول عن ارتجال الحلول ، ثم الإيمان بنفع التصميم . فعلى المفكرين والقادة والساسة أن يخرجوا العالم من هذه الفوضى الراهنة ، بأن يضعوا له تصميما يسير عليه فى مستقبله . والأصل فى كل تصميم عند ولز هو تحطيم حواجز القوميات وإقامة حكومة عالمية تدبر شئون البشر من بلاد البنجوين إلى بلاد الأفيال . وهو لا يستطيع أن يتصور الأرض إلا كوكبا يسبح فى الفضاء عليه نوع واحد عال هو النوع الإنسانى ، وإن كان لابد من قتال فليقاتل أبناء هذه الكوكب الطبيعة ، أو فليقاتلوا أبناء الكواكب الأخرى . وبالعقل والعلم وحدهما يستطيع أبناء الأرض أن يعمروا الأرض وأن ينهضوا وأن يتطوروا فى الطريق المستقيم . وهذا التصور أو هذا الحلم الجميل يبعد كثيرا عن تصور البورچوازية للمستقبل ويقترب كثيرا من تصور البروليتاريا له . فالبورچوازية لا تتصور النوع الإنسانى تصورها وحدة منسجمة متماثلة ، بل تتصوره تصورها فرقا من الكائنات متجافية متنازعة على البقاء ؛ ليبقى على وجه الأرض أصلحها جميعا . والبروليتاريا تتصور النوع الإنسانى نوعا من الأحياء واحدا فى الجوهر وفى الممكنات ، فرّقته الطبقات المالكة بمختلف الفلسفات الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية ، وعلمته التناحر بدل أن تعلمه التفاهم والتعاون . وفى هذه الحدود خدم ولز جموع البروليتاريا بنشر فكرة من أفكارها الرئيسية . ولكن ولز لم يأخذ فكرة الحكومة العالمية أو فكرة التصميم العالمى عن فلاسفة البروليتاريا ، ماركس وإنجلز ولنين ، وإنما اهتدى إليها بحكم إيمانه بالعقل والعلم . فعقليته العلمية جعلته يفهم المجتمع البشرى لا فهما اجتماعيا بل فهما بيولوچيا ، أى جعلته يراه كما يرى نوعاً من أنواع العضويات راقيا ومعقدا . فالنوع الإنسانى عند ولز حقيقة كلية ، حقيقة تميزه فى ذهن العالم عن غيره من أنواع الحياة . والفروق الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية بين أصناف البشر إن كانت حقيقة ، فهى حقيقة جزئية لا تقوى أمام الحقيقة الكلية التى تقنع العلماء بوحدة النوع الإنسانى . وولز الإنسان يلمس أن حزازات المصلحة والدين والعنصر والثقافة تمنع النوع الإنسانى فى مجموعه من التطور أو تدفعه إلى سبيل فى التطور ينبغى أن يتحاشاها . وولز

العالم الذى ألف أن يفكر فى الإنسانية تفكيره فى مادة عضوية كانت فى بساطة الأميبا فأضحت فى تعقيد أيلشتين ، ولز هذا شديد الحرص على أن يدوم للإنسانية ما كان لها من تطور ورقى . والضمان الأول فى نظره هو إيجاد نظام عالمى يضع حدًّا لأسباب التأخر بين البشر كالفقر والجهل والمرض والحروب ، ويقضى على كل تكتل دينى أو عنصرى أو ثقافى يمنع البشر من الإحساس بوحدتهم أو يدفعهم إلى التناحر وهدم الذات . واهتمامه بالنظام هو العالمى اهتمام عالم حريص على سلامة النوع الإنسانى أكثر منه اهتمام مصلح حريص على سعادة البشرية فى وضعها الحالى .

كذلك اهتدى ولز إلى فكرة العالمية اهتداء بحكم موقفه المتوسط بين البورجوازية والبروليتاريا . فقربه من الطبقة العاملة هو الذى هداه إلى التفكير الاشتراكى بما ينطوى عليه من إيمان بنظام الملكية العامة وإيمان بإنشاء ولايات متحدة عالمية ، ولكن صلته بالطبقة المتوسطة جعلت اشتراكيته اشتراكية طوبية كما يحب أن يصفها إنجلز ، أى اشتراكية عاطفية أو خيالية أو مثالية أو ما شاكل ذلك من النعوت ، أى اشتراكية لا تستند فى تحقيقها على أصول مادية فى المجتمع والحياة . فهو يبغى حقًّا تطبيق نظام الملكية العامة ، ولكنه يكاد ينتظر من الطبقة المالكة أن تبادر إلى تطبيق هذا النظام . وهو يبغى حقا إقامة حكومة عالمية ، ولكنه يحسب أن الحكومة العالمية ممكنة الإقامة فى حدود الكادر القائم للأشياء . وهذا وجه الاختلاف بينه وبين فلاسفة البروليتاريا ، وهذا وجه صلته بالبورجوازية . وكلما كثرت من حوله الحروب والصراعات والقنابل الذرية فتح عينيه فى براءة الطفل الغرير وأبصر الهاوية وتحدث فيما يشبه الجزع عن الكارثة ، وطالب مخلصاً بوجوب العمل على تلافيها . ومن رأى الكارثة ولو لحظة واحدة خرج عن التعاليم الماركسية ؛ فالماركسية مطمئنة إلى مصير الطبقة العاملة ، وبالتالى مطمئنة إلى مصير الإنسانية . والماركسية لايشوبها أدنى شك فى أن النظام الاشتراكى قادم لاريب فيه ، وأن الحكومة العالمية قادمة لا ريب فيها ، ومهما كثرت من حولها الحروب والصراعات والقنابل الذرية فهى تعلم أن هذه آلام الموت تعانيها البورجوازية قبل انطواء نظامها الرأسمالى . نعم ! الماركسية مطمئنة إلى مجىء الدولية اطمئنان المسيحية مثلا إلى مجىء الجنة . والماركسية تتفاءل كل هذا التفاؤل لا لأنها

نجد ما يلزمها به فى عالم الأحلام أو فى عالم الأخلاق ، بل تتفاءل كل هذا التفاؤل لأنها تجد مايسوِّغه فى تطور التاريخ . فولز إذ يقلق على مستقبل الإنسانية لايقلق على مستقل البروليتاريا ؛ لأن مستقبل البروليتاريا فى الفلسفة البروليتارية على الأقل مضمون ، ولكنه يقلق غير عامد على مستقبل البورچوازية ، فمستقبل البورچوازية لا يدعو إلى القلق فحسب بل يدعو إلى الجزع كذلك باعتراف فلاسفتها أنفسهم . وولز يقلق على مستقبل البورچوازية غير عامد ؛ لأن تصوره للإنسانية يشمل البورچوازية والبروليتاريا جميعاً . وما جاءه هذا التصور إلا بحكم موقفه المتوسط بين الطبقتين ، أى بحكم تبعيته للبورچوازية الصغيرة ، فهو يزعم لنفسه مكاناً « فوق » الطبقات . فاذا كان الارتفاع عن الطبقات ممكنا فقد ارتفع ولز أكثر مما ارتفع إنسان سواه ، وإلا كان مكانه الطبيعى عين المكان الذى وقف فيه پرودون من قبل ، أى مكانا « بين » الطبقات .

كل هذه أدلة صريحة على طوبَوية ولز ، فمن أراد مزيدا وجده فى قصصه ؛ فالنهج الذى نهجه ولز فى فن القصة يدل على موقفه من المجتمع . فاذا نحن تجاوزنا عن القصص الواقعية التقليدية التى كتبها ولز البورچوازى الصغير للبورچوازية الصغيرة عن البورچوازية الصغيرة مثل « تونو بنجى » و « كيپس » و « سيرة مستر پولى » و « الحب ومستر لويشام » ، وإذا نحن تجاوزنا عن بحوثه الصريحة كنشراته الاشتراكية الفابية و « مجمل التاريخ » و « الإنسانية : عملها وثروتها وسعادتها » فماذا نجد ؟ نجد نوعاً من القصص غير مألوف ، هو الأساطير العلمية ، وأمثلتها كثيرة ، منها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كالآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفى » « والزيارة العجيبة » ، وفيها يجتهد ولز أن يتصور مستقبل البشرية بل مستقبل الأحياء جميعاً إذا ما وضع العلم فى خدمة المجتمع ، ويبنى تصوراته هذه على مستكشفات العلوم ونظرياتها الثابتة . فهو يتصور المجتمع البشرى قد تطور ملتزما قوانين النشوء والارتقاء التى قال بها لامارك وداروين ، فإذا بأفراده ضخام الرؤس صغار الأجسام إلى حد خرافى . وهو يتصور مصلا تحقن به العجماوات فتتطور حتى تقترب من الآدميين . وهو يتصور محلولا يشربه الناس فتشف أجسادهم حتى تمتنع رؤيتها على العيون . وهو يتخيل حرباً تنشب بين كوكبنا الأرضى وغيره من الكواكب ، إلى آخر هذا كله من ممكنات

التنبؤ التى يجوز للعلم فرضاً أن يحققها للحياة . ولكن الاتجاه العام فى هذه الأساطير العلمية هو إقامة المدينة الفاضلة أو الطوبى كما يسميها بعض الكتّاب أو الأوتوبيا كما يسميها آخرون وهذه المدينة الفاضلة مدينة لا توجد إلا فى عالم الأحلام ، وهى مدينة يبلغ المواطنون فيها درجة الكمال فى كل شئ من حيث تكوينهم الشخصى ، ومن حيث صلاتهم الاجتماعية ، ومن حيث صلاتهم بالطبيعة ، وهى الوعد السعيد الذى ما لبثت الإنسانية تمنى نفسها به منذ فجر التاريخ . أما المتدينون فيعلمون بأن مكان هذه المدينة الفاضلة فى العالم الآخر حيث كنا وحيث نعود ، وأما غير المتدينين من أمثال ولز فيعلمون أن إنشاء هذه المدينة الفاضلة فى العالم الحالى أمر ممكن أو يرجون ذلك على أقل تقدير . وهؤلاء يذهبون فى ذلك مذاهب شتى : فمنهم من يتخيلها جمهورية فاشية كأفلاطون ، ومنهم من يتخيلها جمهورية شيوعية كتوماس مور ، ومنهم من يتخيلها جمهورية فوضوية كوليم موريس ، ومنهم من يتخيلها جمهورية علمية كولز . ولا جدال فى أن الأساس الأول فى أية مدينة فاضلة عند ولز هو تطبيق النظام الاشتراكى ، ولكن لاجدال كذلك فى أن اهتمام ولز بتطبيق النظريات العلمية على مختلف وجوه الحياة فى مدينته الفاضلة أشد وضوحاً من اهتمامه بتطبيق النظريات الاجتماعية . وليس غريباً فى ولز هذا الاتجاه العلمى الطوبوى ؛ فقد نشأ فى قرن العلم قرن داروين ومندل ودالتون ورذرفورد وماكسويل وهكسلى ، وكان تخصصه الأول فى علم الحيوان ، كما نشأ فى عصر الطوبيات عصر أوسكار وايلد ووليم موريس وساموبل بتلر ، أيام تململ مفكرو البورجوزاية من مموّلى البورجوازية ، فانحازوا إلى البروليتاريا غير مدركين ، واشتغلوا بنشر الاشتراكية وبناء المدن الفاضلة .

وهذه الاشتراكية الطوبوية فى ولز تؤكد أصوله البورجوازية . فلو قد كان ولز مفكراً بروليتاريا أصيلا لما انصرف عن بناء مجتمع اليوم ، وهو شىء مادى واضح المعالم ، إلى بناء مجتمع الغد وهو شىء أشبه بنسيج الأحلام . وهل أدل على هذه الأصول التوية من أن ولز كلما كتب القصص الواقعى كتبه عن أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة بالذات ، وكلما كتب عن « الإنسانية » جمعاء لجأ إلى الأحلام وعمد إلى لغة الخيال ؟ إن الإنسانية العاملية والاشتراكية العاملية والكفاح العاملى ، أمور مادية وحقائق راهنة ، لايمكن مفكرا عامليا أصيلاً

أن يفر منها أو يؤجل النظر فيها حتى يتحقق مجتمع الغد القريب ، فكيف إذن وغدُ ولز غد بعيدٌ ، غد يحصى بالعصور الأرضية وبالسنين الضوئية ، ولقد يحصى بالآباد يوم يبتلع الأرض اللهب ويصعد منها الدخان .

هذا هو الكاتب المحترف هربرت جورج ولز الذى عرف مهمة الكاتب الناجح ، وأدرك سر النجاح فى الكتابة طول حياته ، وأصاب التوفيق بأول كتاب نشره فى الناس ، فلم ينطو على نفسه ويكتب للخاصة ، ولم يبتذل ويكتب للدهماء بل كتب للجمهور الكبير الذى يحسب له حساب ، كتب للرأى العام ، كتب للرجل العادى . ولكن هناك استدراكا لا بد منه لفهم ولز وجولزوردى وأرنولد بنيت وأترابهم من كتّاب البورچوازية الصغيرة ، وهو أن الرجل العادى الإنجليزى فى هذه المرحلة من تاريخ انجلترا ليس العامل فى المنجم ولا الصانع فى المصنع بل البورچوازى الصغير ، ذلك المتوسط الفقير الذى يعيش على هامش النظام الرأسمالى ويتعلق بأهدابه ، وهو فى انجلترا المعاصرة يعد بالملايين ؛ لأن الرأسمالية الفردية أو الرأسمالية القومية نظام قد تغلغل فى صميم الحياة الإنجليزية بحكم طابعها الإمبراطورى الذى يجعل البروليتاريا الإنجليزية ذاتها بورچوازية صغيرة بالنسبة إلى عمال العالم المتأخرين منهم والمتحضرين . ولقد فهم ولز أبناء هذه الطبقة فهما صحيحا ، ووصفهم وصفاً أميناً ، لا فى قصصه الواقعية وحدها بل فى أساطيره العلمية كذلك . ولعل أنفع ختام لهذا البحث هذه الصورة الرائعة التى جاءت فى قصته « حرب العوالم » وهى صورة لأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة لا ينقصها إلا الإطار :

« كل هؤلاء الناس ، هؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الدور ، وأولئك الملاعين من صغار الكتبة الذين سكنوا فى تلك الناحية ، كلهم قوم لا خير فيهم ، فأجسادهم لا أرواح فيها ، ونفوسهم صغيرة لا تعرف الآمال الكبار ولا الأشواق العظيمة . ومن خلت نفسه من هذه الآمال وهذه الأشواق فهو رمّة حية لا أكثر من ذلك ، رمة يتلفها الحرص ويدمرها الاحتياط . لقد رأيت المئات منهم . رأيتهم يهرولون من دورهم إلى أعمالهم وقد حمل كلٌ فطوره فى يده . رأيتهم يركضون جزعين لاهثين ليلحقوا بقطارهم الرخيص خشية أن يفوتهم القطار فيفصلوا من وظائفهم . رأيتهم يقومون بأعمال لا يفهمون من طبيعتها شيئاً لأن الفهم يخيفهم ويضنيهم . رأيتهم يهرولون عائدين من أعمالهم

إلى بيوتهم خشية أن يتأخروا عن موعد العشاء ، ورأيتهم يلزمون بيوتهم بعد العشاء خوفاً من الشوارع الخلفية المظلمة . رأيتهم يضاجعون النسوة اللائى تزوجوهن لاحبًّا فيهن ، بل لأنهن يملكن قدراً من المال يطمئنون به على حياتهم التافهة الدنيئة التى يهرولون فيها من المبدأ إلى المنتهى ، وقد أمّن كل منهم على حياته واستثمر جانباً من ماله خوفاً من الحوادث . وفى أيام الأحد يقصدون إلى الكنيسة خوفاً من المجهول ، كأنما الجحيم قد أقيم للفيران . »

لويس عوض